المقدمة

دقيقة واحدة قبل منتصف الليل

هل تشعر بالقلق بخصوص التعليم؟ أنا شخصيًّا أشعر بالقلق، وأشد ما يقلقني هو أنه في الوقت الذي يجري فيه إصلاح نظم التعليم في أنحاء العالم، نجد أن كثيرًا من هذه الإصلاحات تحركها مصالح سياسية وتجارية لا تعي كيف يتعلم عامة الناس، ولا كيف تعمل المدارس الناجحة في الواقع، ونتيجة لذلك نراهم يدمِّرون مستقبل عدد لا يحصى من الشباب، وسوف يؤثر ذلك -عاجلًا أو آجلًا للأفضل أو للأسوأ- فيك أو في شخص تعرفه؛ لذا يلزمنا أن نفهم ماهية تلك الإصلاحات، فإذا وافقت على أنها تسير في الاتجاه الخطأ، أرجو أن تصبح جزءًا من الحركة نحو أسلوب أكثر شمولًا يرعى المواهب المتنوعة لأطفالنا كلهم.

في هذا الكتاب، أود أن أعرض كيف تسبب ثقافة المعايير ضررًا للطلاب والمدارس، وأن أقدم طريقة مختلفة للتفكير في التعليم، كذلك أريد أن أبيِّن أيضًا أنك أيًّا من كنت وأينما كنت، فإن لديك القدرة على تغيير المنظومة؛ فالتغيير يحدث. وفي أنحاء العالم كلها، توجد مدارس ناجحة عدَّة، ومعلمون متميزون، وقادة ملهِمون، يعملون بصورة إبداعية ليوفروا للطلاب ما يحتاجونه من أنواع التعليم ذي الصبغة الشخصية، المتعاطِف، الموجَّه لخدمة المجتمع. وثمة مناطق تعليمية بأكملها، بل ونظم قومية كاملة تتحرك في الاتجاه نفسه. والناس من مستويات هذه النظم كافة، يضغطون من أجل التغييرات التي أدعو إليها هنا.

في عام 2006م، ألقيت كلمة في مؤتمر تي. إي. دي. TED* في كاليفورنيا. بعنوان: **هل تقتل المدارس الإبداع؟** ?Do Schools Kill Creativity وكان جوهر هذه الكلمة أننا جميعًا نولد ولدينا مواهب فطرية جمة، لكننا بمجرد أن نلتحق بالتعليم يفقد معظمنا الصلة بهذه المواهب. وكما قلت حينها، يعتقد كثير من النابغين الذين يتمتعون بمواهب هائلة، أنهم لا يتمتعون بأي موهبة بسبب أن ما كانوا متفوقين فيه في المدرسة لم يُقدَّر أو شُوِّه وسُخِر منه بالفعل، فتكون العواقب وخيمة على الأفراد وسلامة مجتمعاتنا.

اتضح بعد ذلك أن هذه الكلمة التي ألقيتها هي أكثر الكلمات مشاهدةً في تاريخ تي. إي. دي، فقد سجلت على الإنترنت أكثر من ثلاثين مليون مشاهدة، وقُدِّر من شاهدوها بنحو ثلاث مئة مليون شخص عبر أنحاء العالم؛ أعلم أن هذا لم يصل لعدد مشاهدات مايلي سايرس Miley Cyrus**، لكنني لا أرقص بطريقتها.

منذ وضع هذه الكلمة على الإنترنت، علمت من طلاب في أنحاء العالم كلها، أنهم عرضوها على معلميهم أو لآبائهم، وعلمت من آباء أنهم عرضوها على أبنائهم، ومن معلمين أنهم عرضوها على مديري مدارسهم، ومن المفتشين أنهم عرضوها على كل من يعرفونهم، وقد عدَدتُ هذا دليلًا على أنني لم أكن الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة، وأن هذه لم تكن مخاوف حديثة أيضًا.

كنت أتحدث في العام الماضي في كلية أمريكية في الغرب الأوسط من الولايات المتحدة، فقال لي أحد أعضاء هيئة التدريس بالكلية ونحن على مائدة الغداء: إنك تعمل في هذا الأمر منذ مدة طويلة الآن، أليس كذلك؟ فقلت: أيّ أمر؟ فقال: محاولة تغيير التعليم، كم مضى من

---

* TED (Design, Entertainment, Technology) مؤسسة غير ربحية أنشئت عام 1984م، وتهدف لنشر الأفكار المفيدة التي تستحق النشر على نطاق واسع، وقد بدأت بمؤتمر يجمع الناس من ثلاثة مجالات: التكنولوجيا، والترفيه، والتصميم. وتحتوي الكلمات التي يلقيها المشاركون في مؤتمرها الذي يعقد سنويًّا على أساليب جديدة لتطوير حياة الفرد، بوساطة تعلم مجموعة متنوعة من حيل الحياة، وعدد من طرائق تطوير الذات. (المترجمة).

** مايلي سايرس، مغنية، وممثلة، وكاتبة أمريكية، اشتهرت بدورها في مسلسل هانا مونتانا الشهير، وتسجل مقاطعها المصورة التي تغني وترقص فيها، على يوتيوب مشاهدات عالية جدًّا. (المترجمة).

الوقت الآن وأنت تقوم بذلك؟ ثمان سنوات؟ فقلت: ماذا تقصد بثمان سنوات؟ فقال: أنت تعرف، منذ الكلمة التي ألقيتها في مؤتمر TED. فقلت: نعم، لكنني كنت أعيش قبل ذلك.

إنني أعمل في مجال التعليم الآن لأكثر من أربعين عامًا معلمًا وباحثًا ومدربًا وممارسًا ومستشارًا، وقد عملت مع أنواع البشر والمؤسسات ونظم التعليم كافة، ومع شركات وحكومات ومنظمات ثقافية من كل نوع، وقمت على إدارة مبادرات عملية مع مدارس ومناطق تعليمية وحكومات، ودرَّست في الجامعات، وشاركت في إنشاء مؤسسات جديدة، فكنت ـ في هذا كله ـ أحث على إيجاد أساليب للتعليم أكثر إبداعًا وتوازنًا، وتتسم بمراعاة الأفراد.

وفي السنوات العشر الأخيرة بصفة خاصة، أسمع الناس في كل مكان يقولون: إنهم يشعرون بالسخط بسبب آثار الاختبارات والقوانين المعيارية القاتلة عليهم وعلى أبنائهم وأصدقائهم، وهم يشعرون بالعجز في كثير من الأحيان، ويقولون: إنهم ليس بوسعهم أن يفعلوا شيئًا لتغيير التعليم، وقد أخبرني بعضهم أنهم استمتعوا بكلامي على الإنترنت، لكن أصابهم الإحباط لأنني لم أقل ماذا يمكن أن يفعلوا لتغيير النظام، ولديَّ ثلاث إجابات؛ الأولى: «لقد كانت كلمة مدتها ثمانيَ عشرة دقيقة، فامنحوني فرصة. والثانية، إن كنتم مهتمين برأيي بالفعل، فإنني نشرت كتبًا أخرى متنوعة وتقارير وإستراتيجيات عن هذا كلّه، وربما تجدونها مفيدة»[1].أما الإجابة الثالثة فهي هذا الكتاب.

تُطرح عليَّ دائمًا الأسئلة نفسها: ما مشكلة التعليم؟ ولماذا؟ إن استطعت أن تعيد إنشاء التعليم فكيف ستكون صورته؟ هل سيكون لديك مدارس؟ هل ستكون نوعًا مختلفًا من المدارس؟ كيف سيُعلَّم فيها؟ هل يمكن للناس كلهم الالتحاق بها؟ وكم سيكون سن الالتحاق؟ هل ستكون ثمة اختبارات؟ إذا كنت تقول: إنني يمكن أن أحدث اختلافًا في التعليم، فمن أين تبدأ؟

أما السؤال الجوهري: لماذا التعليم؟ فهو السؤال الذي يختلف الناس حوله بشدة، فالتعليم ـ مثل الديموقراطية و العدالة ـ مثال لما سماه الفيلسوف الإسكتلندي والتر برايس غالي Walter Bryce Gallie (مفهومًا خلافيًّا في جوهره). فله معانٍ تختلف باختلاف الناس حسب قيَمهم الثقافية، وكيف ينظرون إلى القضايا المرتبطة به؛ مثل العرق والنوع الاجتماعيّ [الجندر] والفقر والطبقة الاجتماعية، ولا يعني ذلك أننا لا نستطيع مناقشته، أو أن نفعل أي شيء بشأنه، وإنما نحتاج فقط إلى توضيح المصطلحات[2]؛ لذلك قبل أن نواصل ما نحن بصدده، أود أن

أقول بضع كلمات عن المصطلحات الآتية التي تسبب خلطًا أو التباسًا في بعض الأحيان: **التعلُّم، التعليم، التدريب، المدرسة.**

التعلّم هو عملية اكتساب معرفة ومهارات جديدة، والبشر كائنات تتعلم وتتمتع بفضول شديد، فلدى الأطفال الصغار، منذ لحظة الميلاد شهية مفتوحة للتعلم، وعند كثير من الناس تبدأ هذه الشهية في الفتور بعد الالتحاق بالمدرسة، والإبقاء عليها نشطة هو مفتاح تغيير التعليم.

التعليم يعني برامج تعلُّم منظمة، والافتراض الأساس في التعليم النظامي هو أن الصغار يحتاجون إلى أن يعرفوا ويفهموا، وتكون لديهم القدرة على فعل أشياء لم تكن لهم سبيل إليها لو تُرِكوا لأدواتهم الخاصة؛ فهذه الأشياء وكيف ينبغي تنظيم التعليم لمساعدة الطلاب على تعلمها تعدُّ قضايا جوهرية.

التدريب هو نوع من التعليم يركز على تعلُّم مهارات معينة، أذكر حين كنت طالبًا مناقشات جادة حول صعوبة التمييز بين التعليم والتدريب، وكان الفرق واضحًا بما يكفي عندما تحدثنا عن التربية الجنسية، فمعظم أولياء الأمور الأمريكيين سيكونون سعداء عندما يعرفون أن أبناءهم المراهقين تلقوا تربية جنسية في المدرسة، لكن يحتمل أن يكونوا أقل سعادة إذا كان أبناؤهم حصلوا على تدريب جنسي.

أما **المدارس** فلا أقصد بها الوسائل التقليدية التي نستخدمها لأطفالنا الصغار والمراهقين فحسب، وإنما أعني أي مجموعة من الناس تجتمع لتتعلَّم مع بعضها. فالمدرسة بحسب ما أستخدم المصطلح هنا تشمل التعليم المنزلي والتعليم اللّامدرسي*، والتجمعات غير النظامية، إما بالحضور الشخصي أو على شبكة الإنترنت من روضة الأطفال وحتى الجامعة وما بعدها؛ فبعض سمات المدارس التقليدية، ليس لها أثر يذكر في ما يتصل بعملية التعلّم، ويمكن أن تصبح عقبة حقيقية في طريقها، أما الثورة التي نحتاجها فتشمل إعادة النظر في طريقة عمل المدارس، وأهم صفاتها بوصفها مدرسة، كذلك يتعلق الأمر بالثقة بتصورٍ آخرَ للتعليم.

---

* Unschooling هي طريقة للتعليم وفلسفة تدافع عن الأنشطة التي يختارها المتعلم بوصفها وسيلة أساسية للتعلم، ويمكن للطلاب في هذا النوع من التعليم أن يتعلموا بوساطة خبرات حياتهم الطبيعية، ومنها اللعب ومسؤوليات الشؤون المنزلية والرغبات والاهتمامات الشخصية، وخبرات العمل والسفر والكتب والأسرة والمعلمين الخصوصيين والتفاعل الاجتماعي. (المترجمة).

إننا جميعًا نحب القصص، حتى وإن لم تكن حقيقية، وبينما نكبر، تكون إحدى وسائل معرفتنا بالعالم القصصُ التي نسمعها؛ فبعضها عن أحداث وشخصيات معينة داخل دوائرنا الشخصية من الأسرة والأصدقاء. وبعضها جزء من الثقافات الأكبر التي ننتمي إليها، الأساطير والحكايات الخرافية والحكايات الخيالية عن أساليبنا في الحياة التي فتنت الناس لأجيال. وفي القصص التي تُحكى مرارًا، يمكن أن يكون الخط الفاصل بين الواقع والخرافة غير واضح، لدرجة تجعلنا نخلط بينهما بسهولة، وينطبق ذلك على قصة يصدقها كثير من الناس عن التعليم، مع أنها ليست حقيقية ولم تكن حقيقية في يوم من الأيام، وهي كالآتي:

يذهب الأطفال الصغار إلى المدرسة الابتدائية في الأساس ليتعلموا المهارات الأساسية في القراءة والكتابة والرياضيات، وهذه المهارات أساسية؛ لأنها تمكنهم من التحصيل الدراسي الجيد في المدرسة الثانوية، فإذا واصلوا الدراسة والتحقوا بالتعليم العالي، وحصلوا على تقديرات جيدة، فسيجدون وظيفة براتب مرتفع، وستزدهر الدولة أيضًا.

في هذه القصة، الذكاء الحقيقي هو ما تستخدمه في التحصيل الدراسي: يولد الأطفال بنسب متفاوتة من هذا النوع من الذكاء، ومن الطبيعي تمامًا أن يكون أداء بعضهم في المدرسة أداءً جيدًا، أما بعضهم الآخر فلا، ويلتحق الأذكياء منهم بحق بجامعات مرموقة مع غيرهم من الطلاب الفائقين دراسيًّا، ويضمن أولئك الذين حصلوا على درجات جامعية جيدة الحصولَ على وظيفة احترافيّة براتب جيد بمكتب خاص بهم. أما الطلاب الأقل ذكاءً فمن الطبيعي أن يكون أداؤهم التحصيلي في المدرسة أقل، وربما يفشل بعضهم أو يتسرب من التعليم، ويحتمل ألا يلتحق بعض من انتهوا من الدراسة الثانوية بأي نوع من الدراسة الأعلى، وأن يبحثوا عن وظيفة تدر دخلًا أقل. وسوف يلتحق بعض الطلاب بالتعليم الجامعي لكنهم يدرسون مقررات فنية أو مهنية أقلَّ أكاديميّةً، ويحصلون على وظيفة لائقة، أو يمارسون حرفة باستخدام معداتهم الخاصة.

إذا تناولنا الأمر بجرأة شديدة، ستبدو هذه القصة أقرب كثيرًا إلى صورة كاريكاتورية، لكن إذا نظرت إلى ما يجري في مدارس عدَّة، واستمعت إلى ما يتوقعه كثير من أولياء الأمور من أبنائهم ولهم، وإذا فكَّرت في ما يفعله كثير من صانعي السياسة في أنحاء العالم جميعها، في الواقع يظهر أنهم يعتقدون بالفعل أن نظم التعليم الحالية صالحة في الأساس، وهي فقط لا

تنجح كما ينبغي بسبب تدني المعايير، ومن ثم تركز معظم الجهود على رفع المعايير عن طريق التنافس والمحاسبة. ربما تُصدِّق هذه القصة أيضًا، وتتساءل: ما المشكلة فيها؟

هذه القصة خرافة خطيرة، فهي أحد الأسباب الرئيسة لفشل كثير من جهود الإصلاح، بل وعلى العكس، قد تضاعف هذه الجهود المشكلات التي تزعم أنها تحلها؛ فهي تشمل معدلات مثيرة للقلق لعدم التخرج في المدارس والجامعات، ومستويات الضغط العصبي والاكتئاب -بل والانتحار- بين الطلاب ومعلميهم، وتدني قيمة الدرجة الجامعية، والتكاليف الباهظة للحصول عليها، وارتفاع معدلات البطالة بين الخريجين وغير الخريجين على حد سواء.

وغالبًا تحير هذه المشكلات السياسيين، فتارة يعاقبون المدارس لعدم ارتقائها للمستوى المطلوب، وتارة أخرى يموِّلون برامج علاجية لإعادتها إلى المسار الصحيح، لكن المشكلات تظل قائمة، بل وتتفاقم بصور عدَّة، ويرجع ذلك إلى أن كثيرًا من هذه المشكلات سببه النظام نفسه.

تتصرف النظم كلها بطرائق خاصة بها، فعندما كنت في العشرينيات من عمري في مدينة ليفربول، شمال غرب بريطانيا، قمت بزيارة إلى أحد المسالخ (ولا أذكر الآن سبب هذه الزيارة، ربما كان لدي موعد هناك). فقد صممت المسالخ لقتل الحيوانات.، وهي ناجحة في ذلك، وقليل من الحيوانات يُفلت، ويكوِّن جماعات الناجين. وفي نهاية الزيارة عبرنا بابًا عليه لافتة كُتب عليها (الطبيب البيطري)، فتخيلت أن هذا الشخص يصيبه الاكتئاب إلى حد ما في نهاية أي يوم عاديّ، وسألت دليلي في هذه الجولة: لماذا يوجد طبيب بيطري في المسلخ؟ ألم يفت أوان تدخل طبيب بيطري في هذه المرحلة؟ فقال: إن ذلك الطبيب البيطري يأتي بصفة دورية ليقوم بتشريح عشوائي. فقلت في نفسي لابد أنه قد شاهد نسقًا متكررًا من ذلك.

إذا صممت نظامًا ليقوم بعمل معين، فلا تندهش عندما يؤدي ما صمم من أجله، وإذا كنت تدير نظامًا تعليميًّا قائمًا على القوانين المعيارية والتطابق الذي يقمع الفردية والخيال والإبداع، فلا تندهش إذا حدث ذلك.

ثمة فارق بين الأعراض والأسباب؛ إذ توجد أعراض كثيرة للأزمة التي يمر بها التعليم حاليًّا، ولن يتعافى منها ما لم نفهم المشكلات الأعمق التي تكمن وراء هذه الأعراض، وإحدى هذه المشكلات هي السمة الصناعية للتعليم العام، والقضية بإيجاز هي أن معظم الدول المتقدمة لم

تكن لديها نظم تعليم جماهيرية؛ أي تعليم عام لأعداد ضخمة لوقت طويل قبل منتصف القرن التاسع عشر. وقد أُنشئ معظم هذه النظم لتلبية حاجات العمال في الثورة الصناعية، ونُظِّمت بحسب أسس الإنتاج الضخم، وكانت حركة المعايير تزعم أنها تركز على جعل هذه النظم أشد كفاءة وأشد خضوعًا للمساءلة، والمشكلة هي أن هذه النظم ليست بطبيعتها مناسبة لظروف القرن الحادي والعشرين المختلفة كليًّا.

في الأربعين عامًا الماضية، تضاعف عدد سكان العالم من أقل من ثلاثة مليارات نسمة إلى سبعة مليارات، ونحن الآن أكثر عدد من البشر يعيش على الأرض في الوقت نفسه، والأعداد تزداد بجنون. وفي الوقت نفسه، غيَّرت التقنيات الرقمية كل ما كنا نفعله: اللعب والتفكير والشعور والارتباط ببعضنا، ولا تزال هذه الثورة في بدايتها، ولا يراعي تصميم نظم التعليم القديمة سماتِ هذا العالم، أما تحسين هذه النظم عن طريق رفع المعايير التقليدية فلن يصلُح للتحديات التي نواجهها الآن.

أرجو ألا يُساء فهمي، فأنا لا أقصد أن المدارس كلها فظيعة، ولا أن المنظومة بأسرها فوضوية؛ بالتأكيد لا أقصد ذلك، فقد استفاد ملايين الأشخاص -وأنا منهم- من التعليم العام بالسبل كافة، ولم أكن لأعيش الحياة التي أعيشها من دون التعليم العام المجاني الذي تلقيته في إنجلترا؛ فبنشأتي في أسرة كبيرة من الطبقة العاملة في الخمسينيات في ليفربول، كان يمكن أن تتخذ حياتي مسارًا مختلفًا تمامًا؛ لقد وسَّع التعليم إدراكي للعالم، ومنحني الأسس التي بنيت حياتي عليها.

وبالنسبة إلى عدد لا يحصى من الناس، كان التعليم العام هو الطريق إلى الإنجاز الشخصي، أو السبيل للبعد عن الفقر والحرمان، وقد نجح عدد هائل من الناس في هذه المنظومة، وكان أداؤهم جيدًا بسببها، وسيكون اقتراح منظومة غيرها أمرًا سخيفًا، لكنَّ عددًا كبيرًا جدًّا لم يستفد كما ينبغي بعد سنوات طويلة من الالتحاق بالتعليم العام، وكان ثمن نجاح من نجح في هذه المنظومة باهظًا بالنسبة إلى كثيرين لم ينجحوا؛ ففي حين كانت حركة المعايير تكتسب سرعة، كان المزيد من الطلاب يدفعون ثمن الفشل، وفي كثير من الأحيان كان نجاح من نجح برغم ثقافة التعليم السائدة وليس بسببها.

إذن، ماذا بوسعك أن تفعل؟ سواء أطالبًا كنت أم معلمًا أم والدًا، أم إداريًّا، أم صانع سياسة ـفإذا كانت لك صلة بالتعليم بأي صورةـ يمكنك أن تكون جزءًا من التغيير، وتحتاج لفعل ذلك إلى ثلاث صور من الإدراك: نقد للوضع القائم، ورؤية لما ينبغي أن يكون، ونظرية للتغيير، لكيفية التحول من نوع من التعليم إلى آخر، وهذا ما أقدمه في هذا الكتاب، بناءً على خبرتي وخبرات عدد آخر من الناس أيضًا، وثمة ثلاثة عناصر تتضافر معًا في الفصول الآتية، هي: التحليل والأسس والأمثلة.

إذا أردت أن تغير التعليم، فمن المهم أن تعرف إلى أي نوع من النظم ينتمي، ولأنَّ التعليم ليس مكوَّنًا من وحدات متماسكة، وليس ثابتًا لا يقبل التغيير، يمكنك أن تصنع شيئًا بشأنه، فإن له أوجهًا كثيرة، ومصالح كثيرة متقاطعة، وكثيرًا من نقاط الابتكار الممكنة؛ تساعدك معرفة هذا على تفسير سبب تغييره وكيفية ذلك.

تقوم الثورة التي أدعو إليها على أسس تختلف عن أسس حركة المعايير، وتقوم أيضًا على إيمان بقيمة الفرد، وحق تقرير المصير، وقدرتنا على التطور وعلى أن نعيش حياة ناجحة، وأهمية المسؤولية المدنية، واحترام الآخرين. بينما نمضي في سياقنا، سأُفصِّل ما أعدُّه الأهداف الأساسية الأربعة للتعليم: الشخصية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية؛ فأهداف التعليم في رأيي هي: تمكين الطلاب من فهم العالم من حولهم، وفهم ما بداخلهم من مواهب مما يمكنهم أن يصيروا أفرادًا ناجحين، ومواطنين فاعلين يراعون غيرهم.

يزخر هذا الكتاب بأمثلة لأنواع متعددة من المدارس، وهو مبني على جهد آلاف البشر والمؤسسات التي تعمل على تغيير التعليم، كذلك فهو مدعوم بأحدث البحوث المتاحة التي تقع موقع الممارسة الفعلية. ما أرمي إليه هنا هو تقديم رؤية عامة متماسكة للتغييرات التي توجَد حاجةٌ ملحَّة إليها للمدرسة وفي المدرسة، وتشمل إحداث تحوُّل في سياق التعليم، وديناميات تغيير المدارس، والقضايا الجوهرية في التعليم والتدريس والمناهج الدراسية، والقياس والسياسة التعليمية؛ فالثمن المحتَّم، عند تقديم صورة كبيرة، هو غياب أجزاء من تفاصيلها؛ ولهذا السبب أحيلك دائمًا إلى أعمال الآخرين، مما يستفيض في الموضوع بصورة أكبر مما أستطيع هنا، في بعض القضايا التي أحتاج إلى أن أغطيها في عُجالة.

إنني أعي تمامًا ثقل الضغوط السياسية الملقاة على عاتق التعليم، ولابد من مواجهة السياسات التي تمارس هذه الضغوط وتغييرها، وجزء من دعوتي موجه إلى صانعي السياسة أنفسهم، لتبني الحاجة إلى تغيير جذري، لكن الثورات لا تنتظر القوانين؛ فهي تندلع مما يفعله الناس على مستوى القاعدة، والتعليم لا يحدث في غرف لجان التشريع أو في خطب السياسيين، بل هو ما يحدث بين المتعلمين والمعلمين على أرض الواقع؛ فإذا كنت معلمًا فأنت النظام بالنسبة إلى طلابك، وإذا كنت مدير المدرسة فأنت النظام بالنسبة إلى مجتمعك، وإذا كنت صانع سياسة، فأنت من يتحكم في النظام بالنسبة إلى المدارس.

وإذا كنت مهتمًّا بالتعليم بأي صورة، فأمامك ثلاثة خيارات: يمكنك إحداث تغييرات داخل النظام، أو الضغط من أجل إحداث تغييرات في النظام، أو تنفيذ مبادرات خارج النظام، وثمة أمثلة عدَّة في هذا الكتاب للتجديد في النظام كما هو، ولدى النظم كلها القدرة على التغيير أيضًا، وهي تتغير بالفعل بصور عدَّة، وكلما زاد التجديد داخلها، زاد احتمال تطورها.

لقد عشت وعملت في انجلترا معظم سنوات عمري، وانتقلت مع أسرتي إلى الولايات المتحدة عام 2001م. ومنذ ذلك الحين كنت أسافر كثيرًا في أنحاء البلاد كلها، أعمل مع معلمين ومناطق تعليمية، واتحادات مهنية، وصانعي سياسة على مستويات التعليم كافة، ولهذه الأسباب ينظر هذا الكتاب إلى ما يحدث في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة تحديدًا، لكن القضايا التي تؤثر في التعليم قضايا عالمية، وثمة أمثلة في الكتاب من أجزاء أخرى من العالم.

يركز الكتاب في الأساس على التعليم من الطفولة المبكرة إلى المرحلة الثانوية، وما نتناوله من قضايا له تداعيات كبرى في التعليم الثانوي أيضًا، وكثير من تلك المؤسسات تتغير تغيرًا جذريًّا مع العالم من حولها، وأنا أشير إلى تلك التغييرات بصفة عامة، إذ إن تناولها بدقة كما يجب، قد يحتاج كتابًا مستقلًّا.

سئلت في مقابلة شخصية مؤخرًا عن نظرياتي، فأجبت بأنها ليست مجرد نظريات؛ إنني أعرض بالفعل رؤى نظرية مختلفة على التوجه الذي أقترحه، ولكن ما أناقشه ليس فرضية، بل جاء بناءً على خبرة طويلة ودراسة لما ينجح في التعليم، وما يحفز الطلاب والمعلمين على تحقيق أفضل ما لديهم، وما لا يحفزهم، وأنا في ذلك ابن تراث طويل؛ فللمنهج الذي أوصي به جذور عميقة في تاريخ التدريس والتعلُّم منذ عصور قديمة، وليس صيحة جديدة أو تيارًا؛ إنه قائم

على مبادئ كانت السبب دائمًا في تعليم يحدث تحولًا، وهي مبادئ سعى التعليم الصناعي*، مع كل ما أنجزه، إلى تهميشها على نحو منهجي.

كذلك فإن التحديات التي نواجهها على كوكب الأرض ليست نظرية؛ بل واقعية تمامًا، ومعظمها أوجدها الناس. في عام 2009م، عرضت سلسلة هورايزون في قناة بي. بي. سي. حلقة بعنوان **كيف يمكن أن يعيش كثير من الناس على كوكب الأرض** (وقناة بي. بي. سي. موهوبة في اختيار العناوين). حاليًّا يعيش2,7 مليارات نسمة على سطح الأرض، وهو ضعف عدد السكان تقريبًا في عام 1970م، وسيصل العدد إلى تسع مليارات بحلول منتصف القرن، واثني عشر مليار نسمة مع نهايته. ولدينا جميعًا الحاجات الأساسية نفسها للحياة، من هواء نظيف ومياه نقية وغذاء ووقود. إذن، كم عدد من يمكن أن يسعَهم كوكبُ الأرض؟

استشارت الحلقة بعض كبار خبراء السكان والمياه والإنتاج الغذائي والطاقة في العالم، وتوصلوا إلى أنه إذا كان معدل استهلاك كل فرد على الأرض مثل استهلاك الشخص العادي في الهند، فإن أقصى ما يمكن أن تتحمله الأرض هو خمسة عشر مليار نسمة، وعلى هذا الأساس فنحن في منتصف الطريق لذلك، والمشكلة هي أننا لا نستهلك جميعًا بهذا المعدل؛ فلو كان استهلاك كل فرد منا بالمعدل نفسه للشخص العادي في أمريكا الشمالية ـبحسب ما قيل لناـ لكان أقصى ما يمكن أن تتحمله الأرض هو مليار ونصف المليار نسمة، ولقد جاوزنا بالفعل خمسة أمثال ذلك تقريبًا.

لذلك، إذا كان كل شخص يريد أن يستهلك كما نستهلك في أمريكا الشمالية، ويبدو أنهم يريدون ذلك، فإننا بحلول منتصف القرن سنحتاج إلى خمسة كواكب أخرى ليكون ذلك ممكنًا. إن الحاجة إلى التجديد الجذري، في طريقة تفكيرنا وحياتنا وعلاقتنا ببعضنا، لا يمكن أن تكون أكثر إلحاحًا؛ ففي وقتنا هذا، نحن منقسمون كما كنا دائمًا؛ بسبب الاختلافات الثقافية والتنافس الاقتصادي على الموارد نفسها.

كثيرًا ما يقال: إن علينا الحفاظ على الكوكب، ولست متأكدًا تمامًا من ذلك؛ فقد كانت الأرض موجودة لما يقرب من خمسة مليارات عام، وستظل تدور لخمسة مليارات عام أخرى

---

* أي المصمم لخدمة الصناعة مع اندلاع الثورة الصناعية، ولا يزال أنموذجًا قائمًا حتى الآن. (المترجمة).

قبل أن تصطدم بالشمس، وقد نشأ البشر المحدَثون أمثالنا ـ على حد علمنا ـ منذ أقل من مئتي ألف عام، فإذا تخيلنا تاريخ الأرض كأنه عام واحد، فإننا نكون قد ظهرنا عليها قبل منتصف ليل 31 من ديسمبر بدقيقة واحدة. وليس الخطر على الكوكب، بل على ظروف بقائنا عليه، وربما تخلص الأرض إلى أنها جربت البشر ولم تنبهر بهم، أما البكتريا فمشكلاتها أقل، وربما كان هذا سبب بقائها لمليارات السنين.

يحتمل أن هذا النوع هو ما كان في ذهن كاتب الخيال العلمي و مستشرف المستقبل إتش. جي. ويلز عندما قال: «إن الحضارة سباق بين التعليم والكارثة». والتعليم بالتأكيد أغلى أمانينا؛ لا أقصد أسلوب التعليم الصناعي القديم الذي صُمِّم ليلبِّي حاجات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بل أسلوبَ تعليم جديد يناسب ما نواجهه من تحديات حاليًّا، ويلائم المواهب الحقيقية الدفينة لدينا جميعًا.

لأننا نواجه مستقبلًا غير مؤكد تمامًا، فالإجابة ليست أن نفعل ما فعلناه من قبل على نحو أفضل، بل علينا أن نفعل شيئًا مختلفًا، وليس التحدي أن نصلح هذه المنظومة، بل أن نغيِّرها، ليس إصلاحها بل تغييرها. والمفارقة الكبرى في الأزمة الحالية في التعليم، هي أننا نعرف بالفعل ما ينجح، لكننا لا نفعله بقدر كافٍ؛ إننا في وضع غير مسبوق يمكِّننا من استخدام مواردنا الإبداعية والتقنية لتغيير ذلك، ولدينا الآن فرص لا حدود لها لجذب خيال الشباب، وتوفير صور من التدريس والتعليم تتوافق معهم إلى أبعد الحدود.

مع أن التعليم الآن قضية عالمية، إلا أنه حتمًا عمليةٌ مصدرها القاعدة الشعبية، وفهم ذلك هو مفتاح التغيير؛ فالعالم يمر بتغيُّرات ثوريِّة، ونحن في حاجة إلى ثورة في التعليم أيضًا، وكما هي الحال في معظم الثورات، اختمرت هذه الثورة لمدة طويلة، وهي تندلعُ على قدم وساق بالفعل في أماكن عدَّة، ولا تأتي من القمة إلى القاعدة، وإنما تأتي من القاعدة وجوبًا.